أوقاف
AWQAF

مركز ريادة
RIYADAH CENTER

الوقف والأدب
النصوص الأدبية في الكتابة الوقفية

1447هـ - 2026م

AWQAFRIYADAH | riyadahawqaf.futurex.sa

الذراع المعرفي والتمكيني
للهيئة العامة للأوقاف

يصدر مركز ريادة الذراع المعرفي والتمكيني للهيئة العامة للأوقاف

سلسلة نشرات معرفية، امتدادًا لموضوعات ومحاور سلسلة اللقاءات المعرفية التي يعقدها المركز لعام 1446 هـ - 2025 م، والتي تهدف لرفع الوعي المعرفي المتخصص بالأوقاف، حيث إن الوقف منذ عصور مديدة يعد جامعًا للعديد من الأفكار التي تتعلق بالواقف والمجتمع، ولا ينحصر دور الوقف على جانب معين، بل يتسع دوره حتى ظهر أثره في نواحٍ مختلفة تجعل الباحث عنها، والمنقب عن تفاصيلها في دهشة جليّة. فتناولت اللقاءات، المتنوعة في عنوانيها، والمتفقة في فكرتها، النظر للوقف الإسلامي من زوايا مختلفة وأبعاد متعددة، لإظهار الجوانب الاجتماعية والفكرية والحضارية للوقف، بدءًا من عالم الأفكار، وصولًا إلى المكتبات والوثائق الوقفية، وتمحيصًا في أثر الوقف في عمارة المسجد حتى أصبح مركز إشعاع حضاري، وصولًا إلى علم الفلك وتأثير الحركة الوقفية في نشأته وتطوره. **وسنلحظ في هذه النشرات، أن الوقف عبر العصور، وفي مختلف العلوم والمجالات، كان عاملًا حضاريًا فارقًا، على صعيد المعرفة والأمكنة، والأزمنة، ولا تزال هذه الآثار تتضاعف وتقدم لنا نموذجًا فارقًا للتنمية المجتمعية والاقتصادية.**

الفهرس

المقدمة 4

بين الزخرفة والإيجاز: مقدمات الوقفيات وخواتيمها 5

سمات الأدب والدعاء في الوثيقة الوقفية 7

الوثيقة الوقفية: مرآة العصور وذاكرة الأدب 9

المقدمة

إذا ذكرت الوقف، خطر ببالك المال والعقار، والبساتين والدكاكين، وما حبسه الواقفون على طلبة العلم أو الفقراء والمساكين. ولكن **الوقف في حقيقته أوسع من ذلك وأعمق؛** فهو نص مكتوب قبل أن يكون عينًا موقوفة. وما كل نصّ يكتبه الناس يخرج في صورة جافة، باردة، لا روح فيها؛ فكثير من نصوص الوقف أُنشئت بروح الأدب، وجرى فيها المداد كأنّه دم قلب كاتبها.

في هذه الوثائق ترى الإنسان في أصفى حالاته: يقف على عتبة الدنيا والآخرة، ينظر إلى ما يملك بعين الزاهد، ويُسجِّل كلماته وهو يودّع ملكه ليضعه بين يدي الله. ومن أجل ذلك جاءت الكلمات صادقة، عاطفية، حافلة بالرجاء والخوف، لا تقل حرارة عن الشعر ولا فصاحة عن الخطب.

مقدمات هذه الوثائق شبيهة بما يكتبه الأدباء في خطبهم وكتبهم؛ تبدأ بالحمد والثناء، ثم بالصلاة على النبي، وتمضي في جُمل قصيرة موزونة، متوازنة، فيها سجع يطرب الأذن، وإيقاع يهتز له الوجدان.

فإذا وصلت إلى الخاتمة وجدت الدعاء المتواصل، والابتهال المخلص، وطلب المغفرة والثواب، وبين الافتتاح والختام يمتد نثرٌ يعكس روح العصر: بسيطًا في صدر الإسلام، منمّقًا في عصور الزينة، رسميًا في العصور اللاحقة، أقرب إلى الخطاب الإداري في العصور الحديثة، ولكنه في كل ذلك أدب حيّ.

هذه الوثائق ليست عقودًا جامدة تحفظ الحقوق فحسب، بل هي نصوص تشهد على ثقافة العصور، تقرأ فيها لغة الناس، ومذاهب البلغاء، ومشاعر الواقفين، وترى فيها أثر المدرسة التي خرج منها الكاتب، وأثر البيئة الأدبية التي عاش فيها. وأنت إذا جمعت هذه الوثائق وتدبّرتها وجدت فيها سجلًا موازيًا لكتب الأدب والتاريخ، لا يقل عنها في القيمة، بل يزيد في أنه أدبٌ صادقٌ غير متكلَّف، كتب في لحظة إخلاص، حين يتخفف الإنسان من دنياه، ويستعد لآخرته.

إن الوقف بذلك يمثّل وجهًا آخر للأدب العربي: أدبًا في غير مظنّته، وبيانًا في غير ساحته المألوفة.

أدب خرج من قلب الإنسان وهو ينشئ عقدًا شرعيًا، فكان في الوقت نفسه وثيقة دينية، وشهادة تاريخية، وقطعة أدبية، ولعلّ أجمل ما في هذه النصوص أنّها تشهد بأن اللغة العربية كانت تسري في كل مظاهر الحياة: في الشعر والرسائل، كما في الوثائق والعقود.

بين الزخرفة والإيجاز: مقدمات الوقفيات وخواتيمها

النصوص الوقفية ليست على نسق واحد؛ ففيها ما زخرفت مقدمته وأسرفت في البيان، وفيها ما اقتصدت فدخلت في الموضوع مباشرة، فمن الواقفين من آثر أن يجعل من مطلع وثيقته قطعة أدبية قائمة بذاتها، ملأها بالثناء، وأدار فيها السجع دورته، وأطال النفس في الدعاء، حتى يخال القارئ أنه أمام خطبة منبر أو افتتاحية كتاب، ومنهم من اكتفى بكلمات قليلة، بسم الله وحمد الله والصلاة على رسوله، ثم مضى رأسًا إلى بيان الغرض: هذا ما أوقفت، وهذه شروطه، وهذا مصرفه. والفرق بين الطريقتين يكشف عن اختلاف البيئات والعصور.

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما تصدق به عبد الله علي أمير المؤمنين، تصدق بالضيعتين المعروفتين بعين أبي نيزر والبغيبغة، على فقراء أهل المدينة وابن السبيل ليقي الله بها وجهه حر النار يوم القيامة، لا تباعا ولا توهبا حتى يرثهما الله وهو خير الوارثين، إلا أن يحتاج إليهما الحسن أو الحسين فهما طلق لهما، وليس لأحد غيرهما.»

وثيقة علي بن أبي طالب رضي الله عنه

فمن نشأ في بيئة يغلب عليها الاشتغال بصنعة الأدب والولع بتكلف البيان، أطال في المقدمات وجعلها سجلاً لفصاحته وبلاغته، ومن عاش في بيئة يغلب عليها طابع السليقة أو الإدارة اكتفى بالقليل، كأنه يخشى أن يثقل على النص بما لا يخدم الغرض المباشر، وهكذا نجد في الوثائق ما هو أقرب إلى قطعة أدبية مطوّلة، وما هو أشبه بمذكرة قانونية واضحة، وكلاهما مع ذلك يحمل الطابع الأدبي، بقدر ما يحمل من حرارة الإيمان وصدق النية.

«الحمدالله الجاعل الاستدلال بالأثر على المؤثر مما سلمه الأعلام وشهدت به العقول الراجحة والأحلام وهو الحجة المعتمدة حين تتفاضل الألباب وتتقاصر الأفهام وبه الاستمساك إن طرقت الشكوك أو عرضت الأوهام، وحسبك بما يسلم في هذا المقام العالي من الأدلة، وما يعتمد في هذا المجال المتضايق من البراهين المستقلة، فحقيق أن يتلقى هذا النوع من الاستدلال فيما دون الفن المشار إليه بالقبول، ويستنبل المهتدي لاستنباطه لما فيه من التبادر للأفهام والتسابق للعقول...»

مقدمة وقف السلطان الغرناطي لكتاب الإحاطة في أخبار غرناطة

وإذا تجاوزنا المقدمات إلى الخواتيم، وجدنا هذا التفاوت أيضًا؛ ففي بعضها إسهاب في الدعاء والابتهال، يتكرر فيه الرجاء بالمغفرة والذخر عند الله، وفي بعضها الآخر جمل قصيرة حاسمة، تنهي النص بعبارة مثل: "جعلته لله صدقةً مؤبدةً"، وكأنها توقيع أخير يختصر المقصد كله. وعلى هذا النحو تتيح لنا نصوص الوقف مجالًا غنيًا لرؤية اختلاف الأذواق والأساليب، بين الإيجاز والإطناب، بين الزخرفة والصرامة، ولكنها جميعًا تلتقي عند جوهر واحد: إخلاص النية وطلب الأجر.

«جعل ذلك نصره الله وقفا مؤبدا لجميع المسلمين، حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين، حضا منه أيده الله على طلب العلم وإظهاره وارتقائه واشتهاره، وتسهيلا لمن أراد القراءة والنسخ منها والمطالعة والمقابلة، وليس لأحد أن يخرجها من أعلى المودع التي هي فيه، ولا يغفل المحافظة عليها والتنويه، أراد بذلك وجه الله العظيم، وثوابه الجسيم، ضاعف الله بذلك حسناته، ورقى في الجنات درجاته، وأطال ملكه، ونظم بالصالحات سلكه.»

خاتمة وقف أبو عنان المريني لخزانة لكتب في جامع القرويين بفاس

سمات الأدب والدعاء في الوثيقة الوقفية

إذا أردنا أن نستخلص السمات الأدبية التي تطبع الوثيقة الوقفية بطابعها الخاص، وجدنا أن أظهرها هو السجع، ثم الصور الوجدانية، ثم لغة الدعاء التي تسري في كل أجزائها. هذه السمات لا تأتي للتزيين وحده، بل تحمل وظيفة مزدوجة: فهي تثبت الحكم وتسدّ منافذ الخلاف، وفي الوقت نفسه تمنح النص حياة أدبية وروحًا إنسانية.

فالتكرار في قولهم: «لا يُباع، لا يُوهب، لا يُرهن» ليس مجرد حصر فقهي، بل هو إيقاع يعيد على الأذن الفكرة ويثبتها في الوجدان، والواقف إذ يكتب هذه الصيغة، لا يريد الدقة وحدها، بل يريد أيضًا القوة والتأثير. ومثل ذلك الاستعارات التي تجعل الوقف «ذخرًا ليوم الفاقة» أو «نورًا في القبور»؛ فهي مجازات تخرج من أعماق تجربة الواقف، تعكس خوفه من الحساب ورجاءه في الثواب.

ومن أجمل ما يكشف عن هذا البعد الإنساني تلك النصوص التي تقرن الوعيد بالرجاء، فتنهى عن تغيير الوقف بلهجة مؤمنة صارمة، وتبشر من يحافظ عليه برضوان الله. **كما في قول أحد الواقفين:**

«فلا يحل لأحد، يؤمن بالله العظيم، ويعلم أنّه صائر إلى ربّه الكريم، أن يبطله ولا شيئاً منه، ولا يبدله ولا شيئاً منه، فمن فعل ذلك أو أعان عليه فإنّما إثمه على الذين يبدلونه، إن الله سميع عليم، ومن أعان على إبقائه على حكم الوقف المذكور جعله الله تعالى من الفائزين المطمئنين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون»

من وقف لسان الدين بن الخطيب كتابه الإحاطة

هذا النص شاهد على أن الوقف ليس مالًا فحسب، بل هو وصية أخلاقية وروحية، يربط الدنيا بالآخرة، ويجعل من الحبر دعاءً ومن العقد موعظة، وفي وثائق أخرى يتفنن الكاتب في صياغة الدعاء حتى تستحيل الوثيقة إلى لوحة من التضرع والابتهال. نقرأ مثلًا في مقدمة إحدى الوقفيات التي:

«وقف الواقف المذكور المبرور سقاه الله تعالى شآبيب الرحمة والرضوان، وكساه جلابيب العفو والغفران: الضياع الخمس والحوانيت المائة والثمانية... وأنهارها وسواقيها وآبارها ورياضها وغياضها وغدرانها وحياضها وعيونها ووهادها وتلالها وقيعانها وجبالها... وقفا مؤبدا صحيحا شرعيا وتصدقا سرمدا صريحا»

من وقف المدرسة الشفائية

ويبلغ هذا الأسلوب ذروته في بعض الوقفيات النجدية، حيث يتداخل البيان الفقهي مع لغة المواعظ، حتى يغدو النص أقرب إلى خطبة وعظية. كما في هذه الوثيقة:

«بسم الله الرحمن الرحيم وبه أستعين... وقفاً حبساً مؤبداً محرماً بجميع محارم الله تعالى... لا يزده مرور الأيام إلا تأكيداً... إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين... لا يحل لأحد من خلق الله يؤمن بالله واليوم الآخر أن يعترض هذا الوقف بظلم أو نقصان... فمن فعل ذلك... فالله حسيبه وطليبه ومجازيه يوم لا ينفع مال ولا بنون... يوم الطامة... يوم الآزفة... يوم الواقعة... يوم الحاقة... وعلى المتعرض لهذا الوقف لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»

أجزاء متفرقة من وقف صبيح

هنا تتحول الوثيقة الوقفية إلى مرثية كبرى للحياة الدنيا، وموعظة مؤثرة عن الآخرة، حتى لتكاد أن تكون فصلًا من كتاب في الزهد، ونرى الواقف وقد جمع بين عقد فقهي محكم، وخطبة أخلاقية جليلة، فصار النص مرآة لروحه ووعيه التي تستحضر اليوم الآخر أثناء توثيق الوقف.

وبهذا يتبين لنا أن سمات الأدب في الوثيقة الوقفية، من سجع وصور ودعاء، ليست قشرة لفظية ولا ترفًا بلاغيًا، وإنما هي إشعاع إنساني يجعل النص أقرب إلى الأدب الحي منه إلى القانون الجامد، إن هذه السمات تكشف عن حقيقة الوقف باعتباره لقاءً بين الدنيا والآخرة: مالٌ يُحبس في الأرض، وكلمات تصعد إلى السماء، وهكذا تخلّد الوثيقة الواقف بماله، وتخلّده أيضًا ببيانه.

الـوثـيـقـة الـوقـفـيـة: مـرآة الـعـصـور وذاكـرة الأدب

الوثائق الوقفية صفحات حيّة من التاريخ، يمكن أن نقرأها كما نقرأ كتب الأدب أو رسائل العلماء، بل لعلها أصدق في تصوير الحياة من كثير من النصوص التي قصد أصحابها الإبداع الفني؛ ففيها تظهر ملامح العصور على اختلافها، وتطل علينا صورة اللغة كما كانت تُكتب في تعاملات الناس، وتكشف لنا عن الروح التي سرت في القلوب لحظة تحرير هذه النصوص.

- **العصر الأول - صدر الإسلام:**

فإذا رجعنا إلى صدر الإسلام والخلافة الراشدة وجدنا لغة جلية، مختصرة، صريحة، لا إسهاب فيها ولا زخرفة، نصوص كتبت بروح قريبة من القرآن والحديث، غايتها أن تثبت الحكم وتوضح المصرف وتمنع الجدل.

وهي نصوص على قصرها تحمل حرارة الإيمان وصدق النية، وتدل على أن البساطة كانت سمة العصر الأول، حيث غلبت روح الفطرة على روح الصناعة.

- **العصر العباسي والأندلسي:**

ثم ننتقل إلى العصور العباسية والأندلسية، فنجد النصوص وقد أخذت حظها من البيان، وظهر فيها أثر البلاغة التي ازدهرت آنذاك، فالسجع أصبح أكثر انتظامًا، والجمل أطول، والصور أبهى، حتى كأن بعض الوثائق فصل من مقامة أو خطبة منبرية؛ وذلك طبيعي في عصر امتلأت كتبه بالجدل الأدبي والفكري، فكان أن انعكس ذلك في عقود الوقف، فتوشحت لغة الفقه بوشاح الأدب.

- **ما بعد العصر العباسي والأندلسي:**

وبعد العصر العباسي والأندلسي ، فإنك ترى مزيجًا دقيقًا من الانضباط الإداري والتقليد البلاغي، الوثائق هناك طويلة، دقيقة، تذكر الأملاك تفصيلًا، وتحدد الحقوق واحدًا واحدًا. ومع ذلك، لا تغيب عنها لمسة الأدب: افتتاح بالبسملة والحمدلة، تزيين بالسجع، إطناب في الدعاء للواقف، كأن النص يوازن بين لغة القانون ولغة القلب.

- **العصر الحديث:**

وحين نصل إلى العصر الحديث، نرى ملامح جديدة، فالنصوص أصبحت أقرب إلى الصيغ القانونية المتداولة في الأنظمة الحديثة؛ الجُمل أقصر، والعبارات أوضح، والتكرار أقل.

ومع هذا التغير، ظل أثر التراث حاضرًا: فالمقدمات ما زالت تبدأ ببسم الله، والخواتيم تفيض بالدعاء، والروح الشرعية تسري في النصوص ولو في أبسط عبارة، لقد تغير الشكل، لكن الجوهر لم يتبدل.

هذا التنوع الزمني يجعل الوثائق الوقفية مصدرًا لا غنى عنه لدراسة الثقافة العربية؛ فهي تعكس الذوق الأدبي كما تعكس أنماط العمران وأنظمة الفقه.

ومن ينظر فيها يرى صورة كاملة: كيف تكلم الناس، وكيف كتبوا، وما اللغة التي استعملوها في أدق أمور حياتهم، إنها نصوص خرجت لا للتباهي، بل لحفظ الحقوق، ومع ذلك حملت بعضها من الجمال والبيان ما يجعلها في مصاف الأدب.

قيمة هذه النصوص اليوم لا تقف عند حدود المؤرخ أو الفقيه، بل تمتد إلى دارس الأدب واللغة والاجتماع، فهي مادة خام لدراسة تطور النثر العربي، ومرجع لقراءة التحولات الثقافية، وشاهد على التقاء الدين بالحياة، وفيها ثروة وجدانية لا تقدر بثمن: لأنها تكشف عن الإنسان في لحظة صدق نادرة، حين يتخفف من دنياه ليبني لنفسه ذكرًا في آخرته.

ولعل أجمل ما في هذه النصوص أن الوقف فيها يتجلى بوجهين متلازمين:

وجه مادي
يحبس المال والعقار

وجه أدبي
يخلّد الكلمة والبيان

المال قد يزول، والأرض قد تبور، والدكاكين قد تنهدم، لكن الوثيقة تبقى، شاهدة على العصر، وناطقة بلسان صاحبها، فهي صدقة جارية بالمعنى الفقهي، وأدب جارٍ بالمعنى الثقافي، تسقي الأجيال اللاحقة من معينها كما سقت المعاصرين بخيرها.

وبهذا المعنى يمكن القول إن بعض الوثائق الوقفية نص أدبي قائم بذاته، ودرس بليغ في صدق الكلمة وخلودها، فيها يكتب الإنسان وهو يستحضر زواله وقرب رحيله، فتخرج كلماته صافية منتقاة، كأنها وصية أبدية للأجيال، إنها سجل للعمران، وسجل للأرواح، وصوت متصل بين الماضي والحاضر.

ومن يتأملها يدرك أن الوقف لم يكن مؤسسة خيرية فحسب، بل كان أيضًا مدرسة أدبية وثقافية، تضاف إلى كنوز التراث العربي، وتبقى أثرًا خالدًا ما بقيت الكلمة.

المراجع

أولاً: المراجع باللغة العربية:

- حمد بن إبراهيم بن ناصر العمران، الوثائق الوقفية في نجد. تاريخ السعودية.
- أحمد عيسى. تاريخ البيمارستانات في الإسلام. دار الرائد العربي، بيروت، 1401هـ/1981م.
- عبد الهادي التازي. جامع القرويين: المسجد والجامعة بمدينة فاس. دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1972م.
- شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب. تحقيق: إحسان عباس. دار صادر، بيروت، 1968–1997م.
- محمد المبرد (ت 285هـ). الكامل في اللغة والأدب. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الثالثة 1417 هـ/1997م.
- يحيى محمود ساعاتي. الوقف وبنية المكتبة العربية: استبطان للموروث الثقافي. مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، الطبعة الثانية 1416هـ/1996م.